الباب الأول

بناء أول بيت للّه بين آدم وإبراهيم عليهما السلام

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول
بناء أول بيت لله بين آدم وإبراهيم عليهما السلام

تضاربت الأقوال والتفاسير عن من هو أول من بنى البيت الحرام ببكة هل هم الملائكة أم الجان أم سيدنا آدم أم سيدنا إبراهيم وكل فرقة قد ساقت الأقاويل والبراهين ولكن الله أعلم ببنائه.

فمن قال بأن الله سبحانه وتعالى أمر ملائكته ببناء هذا البيت أرجع تاريخه إلى بدء خلق الملائكة.

ومن قال بأن الجان هم أول من سكن الأرض وبنوا هذا البيت أرجع ذلك إلى ما قبل آدم.

ومن قال بأن هذا البيت بناه آدم أرجع ذلك إلى بنائه عند نزول آدم للأرض.

ومن قال بأن هذا البيت بناه سيدنا إبراهيم وإسماعيل أرجع تاريخه إلى أكثر من ٢٠٠٠ ق.م.

ولأننا لا نملك الدليل على صحة الرواية القائلة بأن الملائكة هم الذين بنوا البيت الحرام لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكر ذلك فى القرآن ولم يذكر قط أن الملائكة قد أمروا بإنشاء أى شىء فى الوجود لطبيعتهم النورانية المسبحة بذاتها كما أن لهم بيت آخر فى السماء مماثل لبيت الله الحرام فى الأرض وهو البيت المعمور.

أولاً: سيدنا آدم وبناء بيت الله الحرام ببكة:

أعلمنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العظيم أنه خلق الكون من سماوات وما فيهن من شمس وقمر ونجوم وليل ونهار والأرض بعد أن طحاها ودحاها والجبال أرساها وأخرج منها ماءها ملحاً أجاجاً وأخرج منها مرعاها المائى والأرضى بعد نزول الماء العذب الفرات من السحاب المسخر بين السماء والأرض لينبت به حباً ونباتاً ألفافاً، وأنبت من الأرض كل زوج كريم وبهيج وموزون ونباتات مختلف أشكالها

وأحجامها وألوانها وثمارها وأكلها وتسقى بماء واحد وبث فيها من كل دابة مختلف أحجامها من البكتريا إلى الديناصورات ومختلف أشكالها وألوانها وحركاتها، وقد خلق الله كل ما سبق بعلمه وقدرته فى ستة أيام وكان عرشه على الماء وخلق كل شىء فى الوجود من العدم وكل شىء خلقه الله بقدر وفى كتاب ثم استوى على العرش وما مسه من لغوب أو كان سبحانه وتعالى لاهياً.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[الأنبياء:٦].

﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[الرحمن:١٠].

وبعض خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما بين لنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق الملائكة من نور أولى أجنحة ومتدرجين فى وظائفهم حتى نصل إلى الملائكة المقربين.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر:١].

وقد وصل عدد أجنحة سيدنا جبريل أمين الوحى إلى ستمائة جناح كما رآه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عند سدرة المنتهى.

ثم خلق الله سبحانه وتعالى الجان من نار السموم فكان ناراً ونوراً.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن:١٥].

وكان كل من فى الوجود مسبحاً للّه بذاته ويسبح بحمده من فى السماوات والأرض من ماء ونبات ودواب وملائكة وجان حتى أن إبليس اللعين وكان من الجن المسبحين وصل إلى درجة الملائكة.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:١٩، ٢٠].

فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق خلقاً إذا عبده يعبده باختيار وحب ولذلك بعدما خلق كل شيء فى الوجود وجهز كل شيء فى السماوات والأرض وسخرها لتكون فى خدمة خليفته فى الأرض مانحاً إياه بعضاً من صفاته وقدرات لم يعطها لأى خلق من قبله وقد قدر هذا فى كتابه من قبل خلق سماواته وأرضه كما بين لنا ذلك الحديث الشريف: حيث قال رسول الله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**» [رواه أحمد والترمذى]..

وقال الله فى كتابه:

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[**البقرة**:٢٩].

وكان هذا الخلق فى كتابه وهو اللوح المحفوظ وقد وضع وصف كل شيء لاحتياجات خليفته لذلك عندما قال سبحانه لملائكته إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا:

﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[**البقرة**:٣٠].

وذلك لمعرفتهم خصائص خليفته من الكتاب ولم يعترض إبليس لأنه من الجن ولم يطلع على كتاب الله فى هذا الوقت وقد خلق الله سبحانه وتعالى خليفته من مفردات كونه فهو من ماء وطين وتراب وعناصر مختلفة فمن الماء وهو العذب الفرات يكون من السحاب فهو ماء وبرق (ضوء) ورعد (صوت) وصواعق (نار) فهو ماء ونار وصوت ونور وهو طين وهو تراب ورمل فهو من عناصر الكون كله كما قال الله فى حديثه القدسى: [**لو خلقتموهم لرحمتموهم**].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[**الحجر**:٢٨].

وقال عز من قائل: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** ﴾ [**الفرقان**:٥٤].

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[فاطر :١١].

فسوى قامته بنانه (أصابعه) وصوره فأحسن صورته ثم نفخ فيه من روحه فكان سميعاً بصيراً.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[الحجر :٢٩].

فسجدت الملائكة كلهم أجمعين إلا إبليس أبى واستكبر وتجبر.

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة :٣٣، ٣٤].

وهذا يدل على أن علم الله سبحانه يختلف عن كتاب الله فالملائكة قادرين على قراءة كتاب الله ولكن ما فى علم الله لا يعلمه إلا هو ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[البقرة :٣٣، ٣٤].

ثم عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال والإنسان.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب :٧٢].

وعندما حمل الإنسان الأمانة وهى العقل فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى نفساً وألهمها فجورها وألبسها لباس التقوى.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[الشمس: ٩، ١٠].

ثم خلق من آدم زوجه ليسكن إليها وجعل بينهما مودة ورحمة.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا منْهَا رَغَدًا حَيْثُ شئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا منَ الظَّالمينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيه وَقُلْنَا اهْبطُوا بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ من رَّبِّه كَلمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ ﴾[البقرة: ٣٥-٣٧].

وكان الإنسان خليفة الله فى الأرض الوحيد بين مخلوقاته الذى يملك الاختيار بين الإيمان والكفر وكذلك الجن.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالإنسَ إِلاَّ ليَعْبُدُون ﴾[الذاريات: ٥٦].

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمينَ نَارًا أَحَاطَ بهمْ سُرَادقُهَا وَإِن يَسْتَغيثُوا يُغَاثُوا بمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف: ٢٩].

﴿ قُلْنَا اهْبطُوا منْهَا جَميعًا فَإِمَّا يَأْتينَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾[البقرة: ٣٨].

﴿ قَالَ اهْبطَا منْهَا جَميعًا بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتينَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبعَ هُدَايَ فَلا يَضلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذكْري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقيَامَة أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ ربِّ لمَ حَشَرْتَني أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسيتَهَا وَكَذَلكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه: ١٢٣-١٢٦].

هنا عندما هبط أبينا آدم وأمنا حواء إلى الأرض هبط معهما إبليس اللعين وكذلك الملائكة المسئولين عن الأرزاق وخلافه فيكون الطبيعى أن آدم وحواء قد هبطا معاً بالقرب من بعضهما وتقابلا فى منطقة عرفات وهى أقرب مكان للبيت الحرام، وكانت هذه الأماكن تحتوى على المراعى والمياه والحيوانات والعشب وخلافه، وقد سارا بوحى من الله حتى وصلا إلى بكة وهى المكان المقابل للبيت المعمور فى السماء.

البيت المعمور هو بيت الله فى السماء تطوف حوله الملائكة الأبرار . . وقد وصفه الرسول ﷺ فى حديث الإسراء حيث قال:« **ثم رفعت إلى البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هذا؟! قال: هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه**»[أخرجه البخارى ومسلم والترمذى].

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: (هو بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة أى يقابلها وحذاءها تعمره الملائكة يصلى فيه كل يوم سبعون ألف من الملائكة ثم لا يعودون)[مختصر ابن كثير].

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾

[**الطور**: ١-٤]

ولما كان بيت الله الحرام فى الأرض أسفل مباشرة البيت المعمور فى السماء ولذلك يرتبط تاريخ إنشائها بتاريخ بدء الوجود على الأرض.

ومن قال أنه كان يوجد الجان قبل آدم فى الأرض وهم الذين سفكوا الدماء فأى دماء . . وهل للجان دماء؟! . . ولذلك قالت الملائكة ما قالته رداً على الله سبحانــه وتعالى عندما قال إنى جاعل فى الأرض خليفة فالرد عليهم بأن أول من سكن أو هبط إلى الأرض هو آدم لقوله تعالى:

﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ** ﴾[**طه**:٢٣].

وكان الأمر من الله سبحانه لخليفته إعمار الأرض وبالتالى لا تصح هذه الرواية الخاصة بالجن.

آدم هو أول من بنى البيت الحرام

أما الغرض الثانى وهو بناء سيدنا آدم لهذا البناء فتوجد الأدلة الغير جازمة ولكن بالاستقراء لبعض آيات الله فى القرآن العظيم من خلق السماوات والأرض ونزول آدم كخليفة فى الأرض لإعمارها. فيكون من المنطقى أن يوصى الله سبحانه وتعالى إلى

أول نبى ورسول فى البشرية إلى بناء بيت الله الحرام فى الأرض أسفل مباشرة بيت الله المعمور فى السماء على هذه الربوة الحمراء فى بكة حيث خلقت هذه الصخور مع الأرض عندما قال لها الله «كونى أرضا فكانت» .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[طه : ٣٨] .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[الإسراء : ٧٠] .

وهذه الربوة فى نهاية وادى يمتد من منى إلى هذه الربوة يقال له الآن وادى إبراهيم كما يقال أيضاً أن مدينة جدة سميت بذلك لأن بها قبر سيدتنا حواء، والله أعلم .

وبدأ أول زوجين فى البشرية فى عمارة الأرض حيث أمرهما الله سبحانه وتعالى أن يعبدوا الله شاكرين له سبحانه وتعالى أن يقبل توبتهما ، وقد من الله على الإنسان بالعلم حيث علم الله آدم الأسماء كلها وبدأ فى إنجاب الأولاد الذكور والإناث فى البطن الواحد، وكانت حواء تلد فى كل مرة ذكر وأنثى وكان سيدنا آدم يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر، ولما أراد سيدنا آدم أن يزوج ابنه هابيل أخت قابيل ويزوج قابيل أخت هابيل رفض قابيل الانصياع إلى أمر أبيه لأن أخته كانت أجمل من أخت هابيل فقال لهما سيدنا آدم قربا قربانا إلى الله فمن أيكما يقبل قربانه تزوجها . . وكان هابيل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده وقابيل صاحب زرع فقدم أرذل زرعه ، فقبل الله سبحانه قربان هابيل فازداد قابيل غضباً وحسداً وسخطاً وتوعد أخاه بالقتل وقد قتل هابيل أخاه فى أول جريمة سفك دم فى البشرية .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي

سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[المائدة: ٢٧-٣١].

ونسرد هذه القصة لكى نبين أن بدء الخليقة كان على دين الإسلام فى وجود نبى الله ورسوله آدم حيث بين هذا الحديث المتبادل بين هابيل وقابيل مخافة الله وتحريم القتل والتخويف من عذاب الآخرة وهى جميعها أسس أى عقيدة ودين، ولأكد أيضاً أن بمثل هذه التعاليم يكون هناك بيتاً لله يعبد فيه وهو أول بيت بناه أبيهم آدم فى بكة.

ويقول ابن عباس رضى الله عنه: (خوفه بالنار فلم ينته ولم يتراجع فطوعت له نفسه قتل أخيه، وقال الزمخشرى فى الكشاف: إن هابيل كان أقوى من القاتل ولكنه تحرج عن قتل أخيه خوفاً من الله، وقال ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً: لو كانت ندامته على قتله لأخيه لكانت الندامة توبة له)[القرطبى].

لذلك تدل الإشارات السابقة من المكان عرفات وقربها من مكة وقصة ابنى آدم وتقديم أول قربان للّه فى البشرية فى نفس المكان الذى تقدم به سيدنا إبراهيم بابنه إسماعيل قرباناً إلى الله تعالى ونزول الكبش فداءً لسيدنا إسماعيل مماثل للكبش الذى تقبله الله من أول قربان تقدم به بشر وهو هابيل ووصول سيدنا إبراهيم إلى نفس المكان حيث يوجد بيت الله يؤكد أن أول بيت بنى فى البشرية قد بناه آدم عليه السلام، والله أعلم.

واستمرت البشرية من نسل أول عاصى لربه قاتل لأخيه غير بار بأبيه وهو قابيل وقد ابتليت البشرية منذ بدئها بالشرك بالله.

وأنا أرى والله أعلم بأن الآيات الآتية فى سورة الأعراف لا تخص سيدنا آدم حشا للّه كما فى بعض التفاسير ولكن تخص قابيل لقربه من نزول أبيه وأمه إلى الأرض وما سمعه من أبيه من تعاليم الإسلام.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

وقد ذكرت الآية الكريمة أنهما من نفس واحدة حيث تزوج قابيل أخته من نفس البطن وقد جبل قابيل على عدم إطاعة أوامر الله وظنا أن الله لن يرزقهما بذرية لعصيانه وقتل أخيه فلما دعا الله وأعطاهم الولد رجع إلى نفسه الخبيثة وأشرك بالله، والله أعلم.

واستمرت الحياة فى بدايتها على بدائيتها فى الاعتماد على الصيد والرعى.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾[الإنسان : ١].

حتى بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا إدريس وكان نبياً وهو جد سيدنا نوح وهو أول نبى بعد سيدنا آدم.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

[مريم : ٥٦–٥٧]

قال المفسرون أن سيدنا إدريس هو جد سيدنا نوح عليهما السلام وهو أول من أرسل بعد سيدنا آدم وأول من خط بالقلم ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة وقد رفعه الله مكاناً عالياً يقال رفع ذكره وفى رواية أخرى رفع إلى السماء الرابعة وهو من ذرية آدم ويقال أيضاً أنه أوزوريس المصرى هو الذى أدخل عقيدة التوحيد والبعث والحساب إلى المصريين وعلمهم الكتابة حيث أنهم أول من خطوا بالقلم إلى البشرية لذلك رفعه مكاناً علياً وهو رفع ذكره حتى الآن لرجوع الفضل إليه فى تعليم البشرية الكتاب.. والله أعلم.

وجاء سيدنا نوح وكان رسولاً نبياً واستمر فى دعوة قومه ٩٥٠ سنة ولم يستجيبوا له حتى أقرب الناس إليه زوجته وابنه ونجد أروع وصف فى القرآن لقوم نوح على لسانه فى عدم تصديق دعوته ودعائه عليهم.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[نوح : ٦–٩].

ثم عدد فضل الله عليهم وما هو مصير المؤمنين وعندما أبلغه الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن لك إلا من آمن ما معك وأمره بصناعة الفلك فدعا على قومه.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٦، ٢٧].

ولم لا فهم أحفاد قابيل؟ وبذلك لا يمكن أن يكون كل من سيدنا إدريس وهو نبى وليس رسولاً وسيدنا نوح وهو وسط قوم شديدو الكفر والعناء وعبدة أصنام [ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا] أن يسمحوا لسيدنا نوح أن يبنى بيتاً لله فى وجودهم، وكانت نتيجة كفرهم هذا الطوفان العظيم وتدمير الأصنام وكذلك بيت الله فى بكة ولم يتبق من البيت إلا قواعده الصخرية الحمراء وأصبح الوادى الذى كانوا يعيشون فيه واد ليس به زرع ولا ماء ولا حياة ، ورست السفينة على الجودى وهو جبل يقال فى تركيا غرب العراق.

ومن تسلسل الزمان فى القرآن والمكان وهو مكان ظهور سيدنا إبراهيم فيما بعد فى العراق نستكمل أن البيت الحرام الذى بناه كان سيدنا آدم، واستمرت البشرية من سلالة سيدنا نوح وهم: سام وحام ويافث ، وجاء من سلالتهم قوم عاد وثمود وكانوا أيضاً جبارين لأنهم من سلالة جبارين فعبدوا الأصنام أيضاً، وكان قوم عاد جبارين فى أجسامهم وبطشهم وقوتهم فكيف يبنى هود بيت الله فى وسط هذا العداء ودمروا بأمر من الله ومن سلالته الذين نجوا من عاد كان ثمود جبارين فى قتل آية من آيات الله العظيمة وهى خروج ناقة الله من صخر وتسقيهم لبناً وكيف يبنى سيدنا صالح فى وسط هذا الجبروت بيتاً لله وقد دمروا أيضاً بأمر من الله بالصاعقة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[الحج: ٤٢-٤٤].

لاحظ أن الآية فى سورة الحج وبها التسلسل التاريخى للأقوام وعلاقتهم ببعض فقوم نوح وعاد وثمود حقبة متتابعة فجعلهم الله فى قوم واحد من سلالة واحدة ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون عكس قوم نوح كلهم كافرين.

وبعد قرون قليلة من الطوفان ظهر سيدنا إبراهيم وهو من شيعة سيدنا نوح.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾[الصافات: ٨١-٨٣].

مما سبق نجد أن أنبياء الله ورسله الأربعة الذين أرسلوا بعد سيدنا آدم هم: إدريس ونوح وهود وصالح يتعذر على أى منهم أن يقيم بيتاً لله فى وسط هذه الجموع المتجبرة الكافرة عبدة الأوثان فمنهم من أُغرق بالطوفان ومنهم من صدق ومنهم من مات بالرجفة بالزلازل حتى ظهر أبو الأنبياء والرسل سيدنا إبراهيم وهو من شيعة سيدنا نوح كما أعلمنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن العظيم فى سورة الحج أنه جاء بعد قوم ثمود وفى سورة الصافات أنه من شيعة سيدنا نوح.

ومما يؤكد أيضاً أن البيت الحرام بنى قبل سيدنا إبراهيم الآيات القرآنية وأحاديث رسول الله الآتية:

١ - عن قصة بناء بيت الله الحرام يقول ابن عباس رضى الله عنهما بعدما ترك سيدنا إبراهيم زوجته هاجر وابنها الرضيع إسماعيل ثم قفا منطلقاً تاركهما خلفه فقالت له هاجر: أ الله أمرك بهذا؟ . . قال: نعم. . قالت: إذا لا يضيعنا الله أبدا.

قال ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:« **يرحم الله أم إسماعيل قال لها الملك لا تخافى الضيعة فإن ها هنا بيتاً للّه يبنيه هذا الغلام وأبيه وأن الله لايضيع أهله وكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية**»[رواه البخارى] يدل على أن البيت موجود قبل سيدنا إبراهيم.

٢ - من القرآن العظيم:

أ - لذلك نجد أن سيدنا إبراهيم كان يعلم هذا من سيدنا جبريل منذ بدء الرحلة بأنه سيترك زوجته وابنه الرضيع عند البيت الحرام لذلك بعدما تركهما توجه إلى الله وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

[إبراهيم: ٣٧]

ب- كما أعلمنا الله سبحانه وتعالى أيضاً أنه بعد ما بنى إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام أمر بتطهيره للمصلين وليطوفوا بالبيت العتيق ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى البيت بالعتيق لقدم بنائه وأن كان هذا البيت قبل إبراهيم فكيف يكون عتيقاً وهو حديث البناء.

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[الحج : ٢٩] .

مما سبق يتأكد لنا أن البيت الحرام قد تم بناؤه قبل سيدنا إبراهيم وأن التسلسل التاريخى فى القرآن العظيم وما قد سقناه من التحليلات والآيات وتتابع الرسل يدل أن أول من بنى البيت الحرام هو سيدنا آدم عليه السلام، والله أعلم.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران : ٩٦] .

ثانياً : سيدنا إبراهيم وبناء البيت الحرام :

بعد سيدنا نوح وهود وصالح أُرسل سيدنا إبراهيم الخليل عليهم جميعاً السلام وسيدنا إبراهيم هو من ذرية سام ابن سيدنا نوح عليه السلام.

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴾[الصافات : ٨١ ، ٨٣] .

وعندما تدبر سيدنا إبراهيم فى الكون وما حوله من نجوم وشمس وقمر واهتدى إلى وجود الله الواحد الأحد ونكر عبادة الأصنام فكاد له قومه وهم من عبدة الأصنام وأولهم عمه آزر ثم رموه فى النار وقد أنجاه الله سبحانه وتعالى منها.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾[الصافات : ٨٨-٩٨] .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الأنبياء : ٦٩] .

ثم طلب من الله سبحانه وتعالى اليقين وسأل إبراهيم ربه أن يريه إحياء الموتى فأراه اليقين بتجربة عملية فريدة وهى إحياء الطيور بعد ذبحها وتقطيعها وخلطها ووضع على كل جبل جزءاً ثم أمرها بالحضور فأتت بإذن ربها ساعية إليه، واستمر فى دعوة قومه ولم يؤمن له من قومه إلا امرأته وابن أخيه لوط. . فأمر الله سبحانه وتعالى بالهجرة من العراق إلى أرض كنعان وهى الشام ثم مصر وقد شاهد الأصنام فى كل مكان ذهب إليه.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الصافات: ٩٩].

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[العنكبوت: ٢٦].

وعلى الرغم من مرور السنوات فلم يرزق سيدنا إبراهيم بالولد حيث كانت امرأته سارة عجوز عقيم وقد بلغ من العمر تسع وتسعون عاماً ولعله قد اشتاقت نفسه إلى أن يرزقه الله ذرية من بعده تخلفه فى تبليغ دعوة الإسلام إلى البشرية وقد شاركته زوجته هذا الأمل وأثناء هجرته ﷺ إلى مصر أهداه مليكها أسيرة مصرية وكانت من أكرم الحرائر ويقال عنها أنها أميرة واسمها هاجر ، وقد أوحت سيدتنا سارة إلى سيدنا إبراهيم أن يتخذها زوجة، وما لبث أن رزقه الله سبحانه وتعالى منها بولد حليم وهو سيدنا إسماعيل.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[الصافات: ١٠٠، ١٠١].

وبعد ميلاد ابنه البكر كان الأمر من الله بالهجرة إلى سيدنا إبراهيم بمصاحبة زوجته هاجر وطفله الرضيع إسماعيل فى اتجاه الصحراء وكانت بصحبته سيدنا جبريل عليه السلام وكانت الرحلة طويلة وشاقة فكان لا يمر بقرية إلا أن قال سيدنا إبراهيم سائلاً سيدنا جبريل: أبهذا أمرت يا جبريل؟ فيقول سيدنا جبريل: امضِ، وظل هكذا حتى قدم مكة والبيت يومئذ ربوة حمراء. فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما . قال: نعم. وأنزلهما وبنى لهما عريشاً وترك معهما جرابا من تمر وسقاءً من ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: أتذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء؟ فقالت له مراراً وهو لا يلتفت إليها فقالت:

الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا الله أبداً. ثم رجعت وانطلق إبراهيم عائداً واتجه إلى ربه وقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وعند انتهاء التمر والماء عطشت سيدتنا هاجر وابنها الرضيع واستمر فى البكاء وهى تنظر إليه وهو يتلوى فوجدت ربوة عالية تجاههما وهى الصفا فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحد فهبطت من هذه الربوة حتى بلغت الوادى ورفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاءت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت علها ترى أحداً، وفعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى ﷺ: « **فلذلك سعى الناس بينهما**» [صدق رسول الله ﷺ]. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبعث بعقبه حتى ظهر الماء، فجعلت سيدتنا هاجر تحوض بيدها وتقول: زمى . . زمى، وهكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور . . قال ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً**» [رواه البخارى].

وقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله. . حتى جاء أفراد من قبيلة جرهم أثر رؤيتهم للطيور المحلقة على الماء. . فقالوا: ليسدتنا هاجر أتأذنين لنا أن ننزل: عندك؟ قالت: ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا، قالوا : نعم. وأحضروا قبيلتهم وجاوروها. . قال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى ﷺ : «**فألقى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا إلى أهليهم فنزلوا معها**» [رواه البخارى]

فلما بلغ سيدنا إسماعيل السعى وترعرع وشب وبلغ السن قال المفسرون: هو سن الثالثة عشر. . جاءه أبوه سيدنا إبراهيم: «**قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك**» أى أمرت فى المنام أن أذبحك، فقال: له انظر ما ترى؟ أى ما رأيك فيه. قال ابن عباس رضى الله عنهما، قال رؤيا الأنبياء وحى. . كما قال ابن كثير أراد أن يعلم ابنه ليكون أهون عليه، ليختبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه [مختصر ابن كثير] فكان جواب ابنه إسماعيل أجمل جواب يقوله ابن لأبيه فى هذا الموقف: قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . . أفعل ما أمرك الله من ذبحى وستجدنى إن شاء الله صابراً ، وهو امتثال لأمر الله عن حلم الولد، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن يا أبت أشدد رباطى حتى لا اضطرب، وأكفف ثيابى لئلا ينتضخ عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن، وأحد شفرتك وأسرع بها على حلقى ليكون الموت أهون على. . وإذا أتيت أمى فاقرأها منى السلام. . وإن أردت أن ترد قميصى عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى، فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بنى على أمر الله.

وصرعه على وجهه ليذبحه. قال ابن عباس رضى الله عنهما ، روى أن سيدنا إبراهيم أمرَّ السكين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع. . وهو متماثل لما حدث مع إبراهيم حيث قال الله تعالى للنار ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾[**الأنبياء**:٦٩] فسبحان الله أمر السكين ألا يذبح. [حاشية الصاوى على الجلالين] ، وسيجازى الله المحسنين وأفرج عنهما الشدة وجعل لهما من أمرهما فرجاً ومخرجاً ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ**﴾[**الصافات**:١٠٦] . أى أن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح الذى يميز فيه المخلص من المنافق ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾[**الصافات**:١٠٧] . . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كبش أبيض أقرن قد ربط بثمرة (فى تفسير ابن كثير . . ذكر أن هذا الكبش هو الذى قربه ابن آدم هابيل وكان فى الجنة قد فدى به إسماعيل وهو منقول عن السلف الصالح) ويلاحظ أيضاً أن المكان هو نفس مكان أول قربان قدم فى البشرية وهو كبش هابيل هو نفس المكان الذى قدم فيه أول قربان بشرى للَّه رب العالمين وهو سيدنا إسماعيل، ومازلنا على عهده إلى يوم الدين.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى وصف سيدنا إسماعيل بغلام حليم ، وهو الذبيح وبعد ذلك بشره الله سبحانه بحرمانه من طفله الأول إسماعيل بغلام عليم وهو إسحاق وبعد إسحاق يعقوب فكيف يكون إسحاق ذبيحاً وهو مبشر بأنه سينجب ولدا اسمه يعقوب. . . فيكون إدعاء اليهود والمسيحيين أن الذبيح هو سيدنا إسحاق فرض اختلاق.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[الصافات : ٩٩- ١٠١].

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[الصافات : ١١٢].

ولما بلغ إسماعيل مبلغ الشباب تزوج من جرهم . . حضر سيدنا إبراهيم للمرة الثالثة إلى ابنه وأخبره أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يبنى له بيتاً وطلب منه المساعدة.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[البقرة : ١٢٧].

روى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء سيدنا إبراهيم ورأى ابنه إسماعيل يبرى نبلا له فى دوحة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر. قال فاصنع ما أمرك به ربك. . قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك. . قال فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً. . وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل ابنه يناوله الحجارة وهما يقولا : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فجعلا يدورا حول الكعبة، قال رسول الله ﷺ :«حتى ارتفع البناء».

وقد ظهر قدم سيدنا إبراهيم بلا نعال على هذا الحجر وكان هذا الحجر ملاصقا للكعبة وكان يرتفع وينخفض ليتناول الحجارة من ابنه إسماعيل أثناء ارتفاع البناء ويقال عنه الآن مقام إبراهيم.

وقد بنيت الكعبة بلا سقف وقد جعل لها سيدنا إبراهيم بابين ملاصقين للأرض أحدهما الباب الحالى فى الجهة الشرقية ويقابله باباً مماثلاً فى الجهة الغربية.

أما عن الحجر الأسود أو الأسعد فهو ليس من أحجار الكعبة ويقال أن لونه الأصلى كان أبيض ثم تحول لونه إلى اللون الأسود وذلك من ذنوب الناس الملامسين له، ويقال أن هذا الحجر من الجنة حيث قال رسول الله ﷺ: «**انه حجر من السماء ومن أحجار الجنة**»[رواه الترمذى].

وقد أتى سيدنا جبريل بهذا الحجر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام ليبدأ به عند الطواف.

المستشرقون والحجر الأسود:

ادعى المستشرقون أن الحجر الأسود ما هو إلا حجر بازلت أسود جاء به السيل من خارج مكة حيث أنه ليس من أحجار الكعبة حيث أن أحجار الكعبة كلها من جبل الكعبة فى مكة.. وقد عثر عليه إبراهيم ووضعه فى مكان بداية الطواف، وقد تنكر أحد علماء الإنجليز بعد دراسة اللغة العربية فى الغرب وجاء إلى مصر وذهب للحج وذلك فى القرن التاسع عشر ودخل الكعبة فى غفلة من حراسها ولم تكن ذات بال فى هذه الأيام وكسر قطعة من الحجر الأسود وذهب بها إلى إنجلترا ليثبت أن كلام محمد نبى الإسلام خاطئ وأنه ليس حجر من السماء وبعد تحليله ادعوا أنه «نيزك» من نوع فريد وثبت بالدليل العلمى أنه حجر فريد وليس من أحجار الأرض ووضع الحجر فى متحف التاريخ الطبيعى بلندن.

وقد حرص كل العرب ممن كانوا على دين إبراهيم الخليل على الرغم من التحريف الذى أصاب هذه الديانة وعبادتهم الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى فى الجاهلية أن يضعوا هذا الحجر مكانه عندما أعادوا بناء الكعبة أو ترميمها أو إصلاحها.

ثالثاً: سيدنا إبراهيم وإسماعيل ومناسك الحج:

١ - بعد انتهاء بناء الكعبة دعا سيدنا إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يريهما مناسكهما.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

نزل سيدنا جبريل عليه السلام وعلمهما مناسك الحج وقال لإبراهيم عليه السلام «طف سبعاً» فبدأ سيدنا إبراهيم يتجه إلى الركن المسمى الآن بالركن اليمانى فأخذه سيدنا جبريل من كتفه فوجهه فى جهة الطواف التى نطوف عليها الآن وهى ما نسميها «عكس عقارب الساعة» فطاف عليهما السلام سبعا وكان يستلمان الأركان كلها فى كل طواف، فلما أكملا سبعاً، صليا خلف المقام ركعتين ثم قام معه جبريل فأراه المناسك كلها وأداها معه سيدنا إسماعيل عليه السلام.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن إبراهيم لما رأى أوامر المناسك عرض عليه الشيطان عند المسعى فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال: هذا مناخ الناس «أى مكان مناخ الجمال واستقرارهم» فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جُمعاً فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة فقال له: هذه عرفة فقال له جبريل: أعرفت؟ أخرجه الطيالسى عن ابن عباس.

ولما كانت الدعوة الخاصة بالخليل إبراهيم عليه السلام هى الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله والحمد لله فقط فى هذه الأيام لذلك نجد التلبية وهى أيضاً من تعليم سيدنا جبريل وهى التلبية المأثورة حتى الآن هى «لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . إن الحمد والنعمة لك والملك . . لا شريك لك».

رابعاً : استجابة الله سبحانه وتعالى لدعاء سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

يلاحظ كذلك أن أدعية سيدنا إبراهيم وإسماعيل بعد بناء بيت الله الحرام استجيبت جميعاً ونراها حتى الآن رأى العين فى إعجاز ظاهر للعيان كلها آيات من الله العلى القدير ، وعلى سبيل المثال:

١ - الحرم الآمن:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[إبراهيم:٣٥، ٣٦].

ومنذ هذا الدعاء وهذا المكان آمن بإذن الله وتدل كثير من الآيات فى القرآن العظيم على أنه آمن ومن يرد به بإلحاد أو ظلم يذقه الله من العذاب الشديد.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[البقرة: ١٢٥].

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران: ٩٧].

وعندما أراد إبرهة الحبشى وجيشه أن يهدم بيت الله الحرام حتى وهو مدنس بالأصنام أرسل الله عليهم طيراً أبابيل دمرتهم عن آخرهم فجعلهم كروث البهائم.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾[التين: ١-٣].

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[النمل: ٩١].

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[العنكبوت: ٦٧].

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ١٩١].

فالله سبحانه وتعالى يعظم القتل عند المسجد الحرام ولذلك لم يحل للرسولﷺ إلا ساعة لقتال المشركين فى فتح مكة ثم حرمت مرة أخرى إلى يوم الدين. قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: **«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولاينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه»**[رواه أحمد].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٢١٧].

وليس المكان فقط هو الآمن أو الإنسان بل نباته ودوابه التى تؤكل أو التى لاتؤكل الكل آمن فهى محمية إلهية منذ القدم.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[المائدة: ٩٦].

٢ - ظهور سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من نسل سيدنا إسماعيل:

وقد دعيا رسولا الله إبراهيم وإسماعيل أن يكون الإسلام من ذريتهما وقد كان وظهر الإسلام من ذرية إسماعيل بينما ظهرت اليهودية والنصرانية من ذرية سيدنا إسحاق.

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة : ١٢٨] .

وكذلك نجد أن مناسك الحج والعمرة لم تتغير منذ عهد سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلى يوم الدين .

هذا وقد ظهر رسول واحد فقط وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من نسل سيدنا إسماعيل بينما ظهر العديد من الأنبياء والرسل فى بنى إسرائيل سلالة سيدنا إسحاق .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[البقرة : ١٢٩] .

سبحان الله يكون هذا الرسول الكريم من سلالة إسماعيل صاحب كتاب وهو الخاتم على الرغم أنه حتى عصر سيدنا إبراهيم لم تنزل كتب على أى نبى أو رسول ولكن نزلت بضع صحائف على سيدنا إدريس وسيدنا إبراهيم .

سبحان الله أن يكون صفة الرسول التى دعا بها هى صفة سيدنا محمد فى القرآن كله يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . أليس هو المعلم والحكيم والشافع المشفع عليه أفضل الصلاة والتسليم .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة : ٢] .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ١٥١] .

منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾[النساء : ١١٣] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما أن الحكمة هى تفسير آيات القرآن . . وقد لوحظ أن تكرار صفة الرسول ﷺ فى القرآن ليعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . فهو

النبى الخاتم وهو معلم البشرية مكارم الأخلاق فقد علمه سيدنا جبريل فهو ﷺ دعوة الحق والمرسل للبشرية رحمة للعالمين وهو معلمنا وهادينا إلى صراطه المستقيم بسنته الشريفة فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى وكان قرآناً يمشى على الأرض ﷺ.

وقد شهد المشركون فى العصر الحديث بأن سيدنا محمد ﷺ هو أفضل إنسان منذ آدم أثر تأثيراً مباشراً وعميقاً فى البشرية، وقد اختاروا مائة شخص منذ بدء الخليقة الذين أثروا فى البشرية وكان أعظمهم وأولهم هو محمد (كما يقولون) ووصفوا أسماءهم ومآثرهم فى كتاب أسموه «العظماء مائة أولهم محمد» وقد كرر طبع هذا الكتاب فى أربع إصدارات وقد غيروا ترتيب بعض الأسماء بين هؤلاء المائة وفى كل مرة يكون أولهم محمد.

ألم يصفه الله سبحانه وتعالى هو خير هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، وهو أعظم وصف للإنسان أن يكون شمساً وقمراً فى الضياء والحسن وأنه على خلق عظيم ﷺ كما أنه شفيعنا يوم الدين.

جـ- استجابة دعوة سيدنا إبراهيم أن يرزق مكة بالرزق الوفير:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ١٢٦].

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

ألم نلاحظ أن مكة المكرمة فى أى وقت تصل إليها صيفاً أو شتاءً يتوافر فيها فاكهة وخضار العالم صيفه وشتاؤه بكميات كبيرة وذلك حتى قبل ثورة المواصلات ألم يذكر فى القرآن الكريم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا، أفلا يتدبرون القرآن.

د - الآذان بالحج :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[إبراهيم : ٣٧] .

طلب سيدنا إبراهيم من الله سبحانه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم مع الرزق فكان أمر الله سبحانه وتعالى بأن يؤذن للناس بالحج وهو فى صحراء قاحلة تبعد عن أقرب الحضارات ١٠٠٠ كم على الأقل .

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾[الحج : ٢٧-٣٤] .

من هذه الآيات المباركة يتبين لنا آيات الله الكونية العظيمة أن يؤذن إنسان بصوته الضعيف فيسمع البشرية كلها إن الله على ما يشاء قدير فإنها قدرة الله المطلقة التى ينكرها الغافلون الملحدون العلمانيون .

قد اسمع الله سبحانه وتعالى بقدرته حيث أنه خالق كل شىء فى الوجود بعلمه وحكمته وسلطانه الناس وهم فى أصلاب أبائهم ، فمنهم من اهتدى ولبى النداء ومنهم من هم فى غفلة ولم يلبوا ومنهم من ران الله على قلوبهم فهم صم بكم عمى لا يعقلون . . وكذلك ترى العديد من المسلمين القادرين على أداء هذه الشعيرة ولكن

يتقاعسوا لأن قلوبهم مشغولة بالدنيا وما فيها عن ذكر الله وكأن فى آذانهم وقراً. وقد بيّن الله سبحانه وتعالى لنا منافع الحج فى الدنيا وأن تعظيم هذه المشاعر تزيد من تقوى القلوب﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[الحج:٣٢].

وأن نشكر الله سبحانه وتعالى أن سخر ذلك لنا من آكلات العشب أنعاماً لنزكيها ونأكل لحومها ونشرب ألبانها ونلبس من أصوافها وأوبارها ونستخدم جلودها من بهيمة لا تتكلم ولا تشتكى ونفعل فيها كيفما نشاء . . أليس هذا من نعم الله سبحانه وتعالى علينا نحن البشر.

ومن آيات الله أيضاً استجابة الله لدعائهما فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، ألم نر جميعاً الحجاج يتوافدون من جميع بقاع العالم من أمريكا إلى الصين ومن جميع القارات وقلوبهم معلقة بهذا المكان وبهذا المبنى وهى الكعبة المشرفة فأى قوة وقدرة هذه أن تجعل ملايين من الناس فى أيام معلومات تأتى محرمة مضحية بكل شىء للوصول إلى هذه الأماكن إلا أنها قدرة الله العلى القدير . . ليس هذا فحسب نجد أن معظم الحجاج والمعتمرين عند فراق هذه الأماكن تذرف الدموع كما تذرف الدموع عند فراق الأهل والأحبة ويصبح العبد مشتاق إلى الرجوع إليها مرات ومرات لأن أفئدتهم معلقة بها حتى اضطرت المملكة العربية السعودية إلى تحديد عدد الحجاج حتى يكون الحج ميسراً بقدر الإمكان لكثرة الراغبين فى آداء هذه المناسك حيث ينظر إلينا الملحدون والمنافقون والمتكاسلون كأننا أناس مغيبون لأنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان وحلاوة تلبية آذن الحج كما أنهم لم يذوقوا حتى حلاوة أداء الصلوات وكل ما يذوقوه هو اللهو والفجور والعصيان لحظة ونسوا ما سوف يلاقوا من عذاب فى القبر وفى الآخرة حيث لا ينفع مال ولا بنون وأن يكون مآلهم نار الجحيم إن شاء الله رب العالمين.

* الم نر : آية أفئدة من الناس تهوى إليهم آية كبرى ظاهرة للعيان منذ الآذان الأول إلى يوم الحساب.

* ألم نر آية ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ﴾ نجد التجارة والمشتريات والبضائع من كل بلاد العالم ومن مختلف الجنسيات فى مكان واحد وتتم بسهولة ويسر مع تبادل الثقافات والمعلومات.

* ألم نر آية ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ نأتى ملبين ذاكرين شاكرين الله على ما من علينا من رزقه وفضله وأن هدانا إلى الإسلام والإيمان وأداء هذه المناسك كما يحب ويرضاه متبعين آيات القرآن وسنة حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام فى تكافل إنسانى بديع لا تجد له مثيل فى الكون كله لا فرق بين وزير وغفير ولا غنى وفقير ولا بين مريض وسليم ولا أسود ولا أبيض ولا عربى وأعجمى.

المظهر واحد : لا محيط ولا مخيط شعثاً غبراً لابسين أكفانهم.

التلبية واحدة : من جميع الجنسيات لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك بلغات ولهجات مختلفة.

المكان واحد : هو البيت العتيق ومكة المكرمة والمشاعر المقدسة.

الزمان واحد : الجميع فى مكان واحد فى يوم واحد يوم عرفة.

الهدف واحد : تعظيم شعائر الله ومعلنين للعالم أجمع أننا موحدون لله الواحد لا شريك له لا صاحبة ولا ولد ولا شريك له فى ملكه من مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض أحد.

ألم نر أن الهدى والأضاحى والنذور كلها مكانها البيت العتيق، وهو مكان قربان هابيل وفداء سيدنا إسماعيل.

ألم نر أن الله سبحانه وتعالى قد بشر الذين يعظمون شعائر الله بحديث قدسى: « **يا ملائكتى هؤلاء عبادى جاءونى شعثا غبرا أشهدوا أنى قد غفرت لهم** » نقول كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه كثر خير الله وطاب.

خامساً: الحج فى الجاهلية

بعد بناء الكعبة وآذان سيدنا إبراهيم بالحج وبعث سيدنا إسماعيل نبياً ورسولاً إلى سكان مكة وما حولها وهو المسئول عن عمارة البيت ومعرفة المناسك لمن هوت أفئدتهم إلى هذا المكان استجابة لنداء سيدنا إبراهيم للحج. وكان من أوائل القبائل التى آمنت قبيلة جرهم وهم من تزوج منهم سيدنا إسماعيل وأنجب اثنى عشر رجلاً «مثل ابن أخيه يعقوب» هم أباء العرب المستعربة، وظلت جرهم طول مدة وجودهم بمكة مهتمين بأمر البيت الحرام على ملة إبراهيم حنيفاً متبعين نفس المناسك، إلى أن غلبتهم خزاعة وأقصتهم عن مكة، وكان عمرو بن لحى سيد خزاعة شريفاً فى قومه مهاباً لا ترد له كلمة ، واسع الثراء، كثير العطاء حتى أصبح قوله فيهم دينا يتبع ولا يخالف، ولعل مكانته هذه أغرته لتحريف دين من سبقوه وهو دين إبراهيم.

ومن خلال رحلاته العديدة إلى الشام للتجارة والاستشفاء عرف هناك أصنام اليونان وقد أحضر معه صنم أطلق عليه اسم «هبل» وهو تحريف اسم «أبولو» وهو صنم إله الشمس عند اليونان، ثم وضعه فى الحرم واقتدى به سائر العرب حتى صار فى كل قبيلة صنمها الأكبر وزاد اهتمام الناس بالأصنام باعتبارها قربى إلى الله رب الكون وبدأ تحريف مناسك الحج والاستقسام بالأزلام وتأجيل الأشهر الحرم.

وهنا يجب الإشارة إلى أنه عند دخول الأصنام إلى مكة وكفر أهل خزاعة وقبل خروج جرهم جفت زمزم وردمت وقد أودع كبير جرهم فى هذا الوقت ذهب الكعبة ومتعلقاتها فى زمزم واستكمل الردم عليها حتى طمست تماماً ولم تفتح مرة أخرى أو يتوارد ماؤها إلا فى سنة ميلاد الرسول ﷺ.

وعلى الرغم مما حدث من دخول الأصنام إلى مكة وجفاف زمزم إلا أن استمر العرب فى الحج إلى الكعبة وقد اكتسبت المكانة الدينية المرموقة بين العرب واعتبر أهل مكة سدنة البيت الحرام والقائمين عليه، وبعد ما أقصيت خزاعة ورجعت قبيلة جرهم إلى البيت ومعهم ما تبقى من ذرية سيدنا إسماعيل عليه السلام كانت لهم صفة القائمين على الدين والمشرعين له حتى أرسل فيهم سيدنا محمد رسولا من عند الله

سبحانه وتعالى، وفى عهد قريش وقبل ظهور الإسلام ساد بين العرب مذهبان فى الحج.

١ - مذهب الحمس:

وهو الحماس والتشدد فى الدين وكانت تدين به قريش وكثير من قبائل العرب وكان من صفات الحمس إذا أحرموا بالحج يمتنعون عن خض اللبن ولا يصنعون جبناً ولا يأكلون سمناً ولا يلبسون الوبر أو الشعر ولا يستظلون بها ولا يأكلون نبات الحرم ولا يدخلون البيوت من أبوابها بل يجعلون نقباً أو فرجة فى ظهورها ليدخلون منها.

وكانوا يعظمون الحرم ولا يتجاوزونه أبداً إلى الحل وكانوا يقفون عند أطراف الحرم بنمرة ويفيضون منها وبذلك لا يقفون بعرفات لأنه خارج الحرم.

٢ - مذهب الحلة:

وهو المذهب الآخر وكان يتبعه بعض من القبائل غير القرشية وكانوا لا يطوفون بالبيت بملابسهم حيث اقترفوا فيها الذنوب لذلك كانوا يطوفون عراة، ويطوف الرجال نهاراً والنساء ليلاً. . وإذا طاف أحدهم بثيابه فإنه لا يلبسها بعد ذلك أبداً ولا ينتفع بها بل يطرحها على باب المسجد لا يلمها أحد حتى تبلى من الشمس والأمطار ووطء الأقدام.

﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٥].

٣ - علاقة الرسول ﷺ بمناسك الحج قبل الإسلام:

ثبت من السيرة النبوية أن الرسول ﷺ قد شارك قومه فى تجمعاتهم بسوق عكاظ استعداداً للحج وقد استمع إلى خطبة قس بن ساعدة الأيادى الذى جدد فيها تذكير الحجاج بالعودة إلى الله وترك اللهو والباطل واللجوء إلى الحق والصدق.

كما شارك ﷺ فى حرب الفجار لمدة أربع سنوات وكان مكانها أسواق العرب وكان وقتها أشهر الحج وقد ذكرها رسول الله ﷺ وقال قد حضرت مع عمومتى، ورميت بأسهم، ولم أحب أنى أكن فعلت.

كما حضر حلف الفضول الذى عقد فى دار ابن جدعان بين بطون قريش كلها، حيث تعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه وكان الرسول ﷺ يقول فى ذلك ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمد النعم ولو دعيت إليه لأجبت.

كما ثبت أن رسول الله ﷺ قد حج على مذهب الحمس قبل البعثة وفى رواية عن جبير بن مطعم قال: أضللت بعيراً لى، فذهبت أطلبه يوم عرفه، فرأيت الرسول ﷺ واقفا مع الناس بعرفة فقلت : والله إن هذا من الحمس فما شأنه هاهنا.

كما ثبت أيضاً أنه ﷺ اشترك فى بناء الكعبة قبل بعثته ثم الأخذ بحكمه فيما شجر بينهم من خلاف من يكون له سبق فى وضع الحجر الأسود بمكانه الأمر الذى انتهى بقبولهم جميعاً بما حكم به.

قال محمد بن إسحاق فى السير: ولما بلغ رسول الله ، خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهابون هدمها، وإنما كانت رضما فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرا سرقوا كنز الكعبة وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت هناك حية تخرج من بئر الكعبة فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ذلك لأنه كان لايدنوا منها أحد إلا أحزألت (ارتفعت واستعدت للوثوب) وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها، فبينما هى تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش: إنا لنرجوا أن يكون الله قد رضى ما أردنا، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية. . فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمرو بن عائذ (خال والد النبى وكان شريفاً ممدوحا) فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر

قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولامظلمة أحد من الناس.

ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبدمناف وزهرة، وكان مابين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم وكان شق الحجر لبنى عبدالدار بن قصى ولبنى أسد بن عبدالعزى بن قصى ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال ابن المغيرة أنا أبدأكم فى هدمها، فأخذ ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ما صنعنا، فأصبح الوليد ليلته غادياً على عمله فهدم، وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس سيدنا إبراهيم عليه السلام- أفضوا إلى الحجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضا. قال: فحدثنى بعض من يروى الحديث : أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضاً فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس.

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى (الحجر الأسود) فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا القتال، فقربت بنو عبدالدار حفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الحفنة فسموا «لعقة الدم» فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم انهم اجتمعوا فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن آبا أمية بن المغيرة - وكان أسن قريش كلهم - قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، فيقضى بينكم فيه .. ففعلوا، فكان أول داخل رسول اللهﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا .. هذا محمد، فلما انتهى إليهم

وأخبروه الخبر قال عليه الصلاة والسلام هلم إلى بثوب ، فأتى به ، فأخذ الركن -يعنى الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحى (الأمين).

obeikandl.com